في بلاط الخلفاء

# سعد وسعاد في حضرة معاوية

## للأستاذ علي الجندي

فوق بسيط الصحراء المتراءى الأطراف، النضر بتلافيف العشب الأخضر، وعلى كثب من أخبية هذا الحي الذي تخصص في الحب حتى ضُربت به في ذلك الأمثال! كانت سعاد أو سعدى العذرية ترعى البهم مع ابن عم لها يُدعى سعدا في مثل سنها أو يجاوزها قليلاً

ورعى الشاء والنعم — كما يعرف الملمون بالأدب العربي — أخصب مراتع الحب في البادية وأغزر ينابيعه، ففي ظل تلك الوحدة الصافية والخلوة المطمئنة، وبين كثبان الرمل الأعفر ولُعاب الشمس الضاحية بنجوة من فضول الرقباء ولجاجة العُذّال، انسكب هذا الفيض العلوي على القلوب، وانقدحت شرارته السحرية الأولى، وانفسح المجال — في كلاءة العفاف والتصوّن — للتعارف والتآلف والتشاكي والمناجاة! بل خُطّت مصارع العشاق المتيّمين من أمثال ابن حزام وابن ذريح وابن الملوّح، واستطارت أنّاتهم الدامية وآهاتهم الحرار! التي يسميها — من لم يُدلهه الهوى وتُدنفه الصبابة — أشعارَ الغزل والنسيب!

ولم يكن بدّ لسعد وسعاد أن يتحابّا جرياً على هذا العِرق الأصيل في القبيلة. وقد يقال: إنهما في بَلَه الطفولة وغرارة الحداثة؟ أجل، ولكن الحب كالسياسة ليس له قلب! فهو كما لا يوقر الكبير لا يرحم الصغير! بل لعل أبرحه وأشجاه ما ساور الأفئدة الغضة، وخامر الأكباد الرِّطاب!

وأخذ الهوى الطفل يتدرج في النمو بتدرج الحبيبين الصغيرين في العمر، حتى شارف المدى في الوقت الذي بلغت فيه سعاد سن القمر البدر! حيث خفقت الرابعة عشرة، فتفلّك[1] ثديها وتمت أنوثتها، وتحير في محياها ماء الشباب! وإذا هي أروع مثال للجمال صاغته يد البادية العبقرية الصنّاع!

كانت الفتاة فارعة القوام، مُهفهفة الأعطاف، أدناها كثيب مَهيل، وأعلاها خوط بان!

لها شعر فاحم وارد[1] تَسُوس ذوائبه على وجه أبيض مسنون مشوب بسمرة رقيقة كما يشاب الكافور بالمسك! وعينان دعجاوان مكحولتان بالسحر البابلي، يحرسهما حاجبان مُهلّلان[2] كأنهما نونان من خط ناسق! وخدان أسيلان أنضجت تفاحتيهما شمس الصحراء، نبت بينهما أنف كقضيب الدرّ أو حدّ السيف لم يَخنُس به قِصَر ولم يمض به طول. شُقّ تحته خاتم عَطِر كالأقحوانة الغضة، يلتمع فيه سِمْطان من اللؤلؤ المنضود تجري عليهما شُهدة العسل وسُلافة الرحيق!

وكانت تحلّي جيدها العاجي الأتلع، بعقد من الجزْع[3] الظَّفاريّ، وسَخاب[4] من القَرَنفُل والحُلب، واسطته عقيقة حمراء قانية، تتوهج في ثغرة نحرها، وفوق ثمرتي صدرها توهج الذهب الذائب في بوتقته

وإلى هذا الإثراء من الحسن المطبوع، أوتيت مزماراً من مزامير آل داود! فكان صوتها نديّاً رخيماً، عذب الجرْس حلو الرنين! إذا حَدَتْ به في أعقاب الإبل، أو تغنت وراء الغنم، أو أخذت بأطراف الحديث في التساهر، صبت في الآذان ما يشبه وسواس الحلي أو زجل الحمام!

وبرّح الحب بالفتى والفتاة، وفعلت الصبابة فيهما أفاعيلها! ولكن حياء الفتيان وخفَر العذارى العواتق في هذه الأيام، حالا دون المكاشفة بهذا الجوى الدفين! فكانا يتناجيان بلغة العيون، والعيون أقدر على أداء رسالة الغرام، وأجلى إعراباً عن لواعج الشوق السّاعر من لسان المقال!

تَكلّمُ منا في الوجوه عيوننا فنحن سكوت، والهوى يتكلّم

وفي صبيحة يوم شديد القُرّ لاذع الشفيف[5]، جلس العاشقان حول نار يصطليانها التماساً للدفء، وقد علق بصرها بالشرر المتطاير هنا وهناك كأنه قُراضة الذهب، ذاهلين عن كل شيء حولهما غارقين في صمت عجيب! وإذا الفتى تمتد يده — دون أن يعي — إلى حزمة من يابس العَرْفج[6] طرحها في النار،

(١) استدار

(١) طويل (٢) مقوس كالهلال (٣) خرز أسود يجلب من ظاهر بلاد الهند (٤) قلادة تلبسها الصبيات. (٥) البرد (٦) شجر سريع الاحتراق

فذكا لهيبها واندلعت ألسنتها الحُمْر تترقص على وجه الفتاة البضّ فتشُبّ لونه ، وتجلو فتنته ، وتزيده سحراً على سحر !

وأحست سعاد — بعد لأى — بلفح الأوار ، فصحت من ذهولها ، وازورّت عن الموقد قليلاً متّقية الوهج بإسبال جفنيها المنكسرين ، فاستقرت أهدابها الوُطف[1] على ورد خديها ، فكان منظراً أخاذاً يقرّح قلب الخلىّ ، ويحثّ الناسك على الصبوة !

أخذت عينُ الفتى هذه الصورة الفاتنة ، فسيل صبرُه ، وتدلّه عقله ، وخفق قلبه خفوقاً متدارِكا ، وربا سَحْره[2] حتى ما يكاد يتنفس ! ثم شعر كأنّ نفسه تتنزّى من داخل إهابه ، وأن أكام عواطفه تتفتق عن نفحات عبقة ندّية ، لم تلبث أن تخالجت فى صدره ، ثم ارتقت إلى لَهاته ، ثم سالت على عذَبة لسانه ، فإذا هى هذا الشعر يهتف به أول مرة فى حياته :

بأبى ! كرهت النار لما أوقدت فعرفتُ ما معناك فى إبعادها
هى ضرّة لك بالتماع ضيائها وبحسن صورتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك فى القلوب صنيعها
بسيالها وأراكها وعرادها[3]
شركتك فى كل الأمور بحسنها
وضيائها وصلاحهـــا وفسادها

فتظاهرت سعاد بأنها لم تسمع — وهى جدُّ سامعة — تخيل إليه أن شعره لم يند على قلبها ، ولم يقع منها بموقع ، فاتجه شطر النار يؤرثها بعود من الحطب — وهو يترنم بهذه الأبيات — :

وماعرضت لى نظرةٌ متذعرفتها فأنظر ، إلا مُثّلت حيث أنظرُ
أغارُ على لحظى لها فكأننى إذا رام لحظى غيرها ليس يبصر
وأحذر أن تُصغى إذا بُحت بالهوى
فأكتمها جهدى هواى وأستُر

فنصت إليه سعاد جيدها الناصع ، ورمته بنظرة فاترة منكسرة ملؤها عتب رفيق ! فاضطرب الفتى وصبغت وجهه حمرة الخجل ، وأطرق ينكت الأرض بعود فى يده ، وأراد أن يذهب بالحديث مذهباً آخر ، فعصب ريقه ، وانعقد لسانه ؛ فماذ بالصمت مكرهاً كما عاذت هى به من قبل ، وظلا بقية يومهما جامدين كالأنصاب

(١) طويلة مسترخية (٢) الرئة
(٣) السيال والعراد : نبات

ولما كان من الند بكر الفتى إلى المرعى تبكير ابن دأية[1] ، بعد أن قضى ليلة نابغية بجفن مؤرق ودمع مرقرق !

ولبث يرقب سعاد رقبة الهلال ليلة الشك ساعات ممضة فلم تحضر ! فساوره القلق ، ومالت به الظنون كل ميل ! وكان أخوف ما يخافه أن تكون ابنة عمه قد اعتقدت فيه أنه خضع لبعض[2] الأمر . فطفق يذرع الوادى إقبالاً وإدباراً ، ويبلل رداءه بعبرات سخينة ، حتى نال منه اللغوب ، فسقط رازحاً بين طيات الرمال ، ينشد :

مُتّ شوقاً ، وكدت أهلك وجْداً
حين أبدى الحبيب هجراً وصـــدا
بأبى من إذا دنوت إليه زادنى القرب منه نأياً وبعدا
كيف لا كيف عن هواه سُلوّى
وهو شمس الضحى إذا ما تبدّى ؟ !

ولم يكن سعد مصيباً فى ظنه ، فقد كانت سعاد مطمئنة إلى حسن نيته ، وصفاء سريرته ، غير ناسية شعار العذريين ( إن فى فتياتنا صياحة وفى فتياننا عفة ) ، ولم تكن كذلك ناقة منه نسيبه بها ، بل نزل على قلبها برداً وسلاماً ! وأى فتاة لا تستروح إلى حديث الحب البرىء ، ولا تهفو إلى رؤية محاسنها مفرغة فى قوالب الشعر المذهبات ؟ !

ولكن الفتاة كانت عاقلة أريبة بعيدة النظر ، فخشيت أن يستحلى الشاعر هذا المرعى المؤنق ، ويتمادى فى إعلان صبوته ، ويجرى مقطعاته ورقائقه على ألسنة الرواة فتفتضح بها ، ويقف ذلك عقبة فى بلوغ أمنية تعدل عندها الحياة ! وهى زواجها من ابن العم الحبيب الذى ينزل منها فى سواد العين والفؤاد ! فأرادت أن تتخلف عن لقائه أياماً تتصنع فيها المرض على ثورته تهدأ وشقشقته تقر ! ومادرت سعاد — عفا الله عنها — أن ما حسبته دواء هو الداء الأكبر بل الموت الأحمر ! :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

وبينما كان الفتى متوحداً فى الصحراء تتوزّعه الهواجس ، ويخبط من حيرته فى مثل قطع الليل المظلم ! لمعت فى ذهنه خاطرة استنار منها وجهه وثلج لها فؤاده ، فصكّ جبهته وصاح : الحمد لله لقد اهتديت !

(١) الغراب (٢) كناية عن الميل إلى مالا يحل

وما عَتِمَ أن انكفأ بالرّاغية والشّاغية إلى مضارب الخيام، ثم عطف على طِرَاف ممدّد فدخل إلى عمه الشيخ، فإذا هو مُحْتَب فوق لبدة يمشّط لحيته اللّيفانيّة[1]

حيّا الفتى عمه الشيخ فرد عليه بأحسن منها، ودعاه إلى الجلوس فجلس قُبالته مختشما وانقضت فترة كان فيها زائغ البصر شارد العقل جمّ البلابل! ثم تغلب على وساوسه وقال بصوت متقطع النبرات:

— عمي وأبي بعد أبي!

— لبيك ولدي وَوَصَلتْك رَحِم!

— جئت أخطب إليك سعاد

فحل الشيخ حبوته وابتسم قائلاً: سعد يخطب سعاد! هو الفحل لا يُقْدَع[2] أنفه!

فنكّس الفتى رأسه مستحيياً وفي منبت كل شعرة من وجهه ثغر ضاحك!

وكان لسعد صِرْمة[3] من الإبل وثلة من الضأن والمعز ورثها عن أبيه الذي مات عنه — وهو طفل — فأصدق سعاد عشرين ناقة عُشَراء[4]

وما هي إلا أيام قلائل حتى أُهديت الفتاة إليه في ليلة أضحيانية قمراء، تحف بها كوكبة من أترابها يتغنين ويضربن بالدفوف، وأمامهن الجواري الصغيرات يعزفن ويرقصن، ومن حولهن فتيان الحي يتشاولون[5] بالسيوف ويتناضلون بالسهام، ويتسابقون على صهوات الخيل العراب! فبلغوا بجاداً من الوبر ضُرب لها خاصة على مسافة غَلْوة[6] من الحي، فأدخلوها فيه وجلس إلى جانبها الزوج، وأفرغ على رأسهما نِثار التمر عملاً بسنة البدو! وبقي أهل الحي نساء ورجالاً في لهو وسمر حتى انفجر الفجر، فودعوها داعين لها بالرّفاء والبنين!

ومضى عامان أجردان[7] نعم فيهما العروسان بما جاوز قدر الأمل؛ من حياة لينة هنيئة وعيش ألمى[8] الظلال، وحب على الأيام يزداد حِدّة وجدّة! ولكن صدق من قال:

« وعند صفو الليالي يحدث الكدر »!

(١) تشبه الليف. (٢) لا يدفع (٣) قطعة ما بين العشرة إلى الأربعين (٤) حاملة في الشهر العاشر
(٥) يتلاعبون (٦) مسافة رمية السهم (٧) كاملان
(٨) كثيف

فإن كلّف الزوج بعِرْسه وابتغاء مرضاتها، جعله يبسُط يده كل البسط في الإنفاق عليها، فكان يرد الحواضر وأسواق العرب يبتاع لها الطرائف: من عَصْب اليمن ورَيْط الشام ومناديل مصر وعطور الهند وزعفران البلقاء مبالغة في ترفيها وتدليلها، مع نصحها له بالقصد والاعتدال، ونفورها من هذا الترف الذي يجرّدها من وسْم البادية وشارتها المحبوبة

فلم يرْعو الزوج العاشق، وسدَر في غُلَوائه حتى أتلف ماله، ولم يبق له سبَد ولا لبَد! فتلقّت سعاد هذه الجائحة بالصبر الجميل! وضاعفت من حبها للفتى وحدبها عليه لترفّه عنه حَرّ المصاب!

ولكن الأمر لا يعنيها وحدها، فهناك أبوها وهو وإن كان من قوم جُبلوا من طينة العواطف، ووسموا برقة الشعور، وسَنُّوا للناس سنن الموت في الحبّ! إلا أنه كان أعرابياً جافي الخليقة غليظ الكبد! لا يفهم من الحياة غير رُغاء الإبل وثُغاء الشاء والنَّصرّ والحلاب، فأنف لابنته خشونة العيش، وتعاظمه أن تَلفحَها سَموم الفاقة في طراءة السن وغضارة الشباب!

فقطع صلتها ببعلها واحتجزها عنده وسعى في خلاصها منه! فرفع الزوج الأمر إلى والي تلك الجهة الأموي الفتون المدل بمكانه من قريش وبمكانه من الخليفة مروان ابن الحكم.. وكانت سعاد قد وصفت له في بعض قدماته إلى البادية، فعشقها على السماع — والأذن كالعين تعشق — فاهتبلها فرصة يتقنص فيها هذا الشادن العذري المربب الذي ما برح يرتمي حبة قلبه! فأكره سعدا على مفارقة زوجه، وضمها إليه — بعد انقضاء عدتها — وفي عينها دمعة جارية، وفي قلبها لوعة ذاكية!

حزّب الزوج الأمر، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولا عجب فقد أصيب بطعنتين نجلاوين في قلبه وكرامته. ولكن إذا جار الوالي أليست هناك يدٌ أعلى من يده، هي يد الخليفة! ومن فوقها يد الله!

لم يجد الفتى بدّاً أن يعتسف الصحراء إلى دمشق، حيث يتربع على دست الخلافة آدم قريش، ووارث حلوم آل حرب، وكسرى العرب وأدهى دهاتها معاوية بن أبي سفيان، ليستعديه على ابن عمه الحاكم المتسلّط!

[ البقية في العدد القادم ]

علي الجندي

معهد التناسليات
معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس الذي يشغله فرع القاهرة بعمارة روفيه نمرة ٤٦ شارع المدابغ تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع أنواع اضطرابات الأعضاء التناسلية والشراسة التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وضعف الشباب عند الشيوخ المبكرة. ويعالج بصفة خاصة: زيادة الحساسية طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦. ملاحظة: يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للمتغيبين بعد أخذ الفاتورة بعد أن يجيبوا على مجموعة الأسئلة السيكولوجية المنشورة على ١٤١ سؤالاً والتي يمكن الحصول عليها بقرش